مكة المكرمة في مطلع القرن السابع الهجري (13م) من خلال رحلة ابن المجاور (تأريخ المُستبصر)

نواف عبد العزيز الجحمة

أستاذ مشارك - كلية التربية الأساسية
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي - دولة الكويت

مستخلص. قدم ابن المجاور في العامين (625- 626هـ) (1227-1228م)، وصفاً دقيقاً لمكة المكرمة في عصره، منبهاً بذلك إلى أهمية مكة المكرمة ومكانتها الدينية. وتعتبر المادة التي قدمها على جانب كبير من الأهمية لأنها ملأت فراغاً في المعلومات الرحلية والجغرافية عن مكة المكرمة في مطلع القرن السابع الهجري (13م)، خاصة وأن ابن المجاور لم يكن محدثاً ومؤرخاً فقط، ولكنه كان إلى جانب ذلك رحالة دقيق الملاحظة.

ونظراً لأهمية الكتاب من الناحية العلمية والتاريخية فقد ارتأينا أن نعود إليه، وخاصة إلى أكثر طبعاته توثيقاً تحقيق أوسكر لوفجرين Lofgren، بهدف استنطاق مادته عن مكة المكرمة والوقوف عند بعض ما تختزنه من تفاصيل وإشارات معبرة عن مرحلة هامة من تاريخ مكة المكرمة لقلّة ما كتب عنها ولاضطراب المادة التاريخية المتوفرة حولها

المقدمة

قدّم ابن المجاور⁽¹⁾ وصفاً دقيقاً لمكة المكرمة في عصره، منبهاً بذلك إلى أهمية مكة المكرمة ومكانتها الدينية، وتعتبر المادة التي قدمها على جانب كبير من الأهمية، لأنها ملأت فراغاً في المعلومات الرحلية والجغرافية عن مكة المكرمة في مطلع القرن السابع الهجري (13م)، خاصة وأن ابن المجاور لم يكن فقط رحالة دقيق الملاحظة، ولكنه كان إلى جانب ذلك عالماً بالمعطيات الطبوغرافية والحضارية وهي جميعها تكشف عن معرفته بمكة المكرمة خاصة في محيط الاثنوغرافيا والأدب الشعبي (الفولكلور)⁽²⁾ يقول كراتشكوفسكي: "إن ابن المجاور كاتب أصيل له طابعه الخاص به وأنه ربما يحتل المكانة الأولى فيما يتعلق بالملاحظات الأثنوغرافية"⁽³⁾.

ونظراً لأهمية الكتاب من الناحية العلمية والتاريخية، فقد ارتأينا أن نعود إليه وخاصة إلى أكثر طبعاته توثيقاً ودقة⁽⁴⁾، بهدف استنطاق مادته عن مكة المكرمة والوقوف عند بعض ما تختزنه من تفاصيل

وإشارات معبرة عن رحلة هادفة من تاريخ مكة المكرمة في تلك الفترة، وسنحاول معالجة المادة التي قدمها عن مكة المكرمة حسب تصنيفها إلى ثلاثة محاور هي (المجال والمجتمع والاقتصاد).

1- المجال:

أول ما بدأ به ابن المجاور ذكر أسماء مكة وصفاتها معتمداً على المرويات والمصادر المعتمدة في تاريخ مكة المكرمة⁽⁵⁾، وقد ربط المجال المكي بالمحاور الطرقية الرئيسية والتزم بوصف المدن الحجازية على أساس ثلاثة محاور طرقية.

— المحور الأول: (من مكة إلى المدينة) على طريق بني عصبه وهم السرو⁽⁶⁾ ثم إلى بطن مر أربعة فراسخ وهو واد طيب، وبني فيه بعض أمراء مكة من الشرق قصراً، وهو الآن خراب وإلى الهدى أربعة فراسخ، وإلى برزة أربعة فراسخ، وأبي شابه أربعة فراسخ، وإلى المدينة المنورة وإلى هجر وهي أرض بني سليم التي فتحها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وإلى الخضراء من يثرب ونجد (مرك) ثم

أ - تسوير مكة وأشكال البناء: اهتم ابن المجاور ببناء البلد الحرام منذ بداية بنائه إلى اكتماله، مبرزاً مختلف جوانبه في الماضي والحاضر، ولكن ما يهم ابن المجاور البناء المحدث في هذه المدن بحكم الظرفية التاريخية المضطربة التي تعيشها مكة، خاصة ولاية مكة الذين اضطرتهم رغبتهم في الحفاظ على استقلال مكة إلى محاصرتهم من جميع الأطراف، من جانب الأيوبيين تارة ومن جانب الرسوليين تارة أخرى.

يذكر ابن المجاور أن الأمير هاشم بنى مدينة ظاهر مكة ما بين درب الثنية والمسفل تسمى مربعة الأمير - فكان سكن فيها جنده وخدمه وحشمه وبقي البلد عامراً⁽¹⁵⁾.

لكن تحصين المدينة لم يكن دائماً منيعاً، لذلك كان الأشراف يلجؤون إلى التحصينات الطبيعية كقمم الجبال وطرقها الوعرة، فها هو يسجل شروع بناء الأمير قتادة بن إدريس⁽¹⁶⁾ على محيط مكة سوراً من الحجر والطين، وذلك على رؤوس الجبال وبطون الأودية وركب عليه أربعة أبواب:

باب درب المعلى ينفذ إلى عرفات، وباب درب الثنية ينفذ إلى مدينة الرسول ﷺ ويسمى باب جدة وباب العمرة، وباب المسفلة ينفذ إلى اليمن، وباب الصغير ينفذ إلى الصفا⁽¹⁷⁾.

ب - ظاهرة الخراب: الإقرار بوجود هذه الظاهرة يتطلب منا الاستشهاد بعدد كاف من الوقائع المؤيدة لهذا المفهوم وبالأخص من الأحداث التي جرت في فترات متتالية تتعلق بالانكسار الذي دب في جسم الدولة العباسية ببغداد والدولة الأيوبية بمصر والشام، مما أدى بطبيعة الحال إلى تمادي الفتن والصراعات بين الأشراف، وهذا ما رأيناه جلياً في مطلع القرن السابع الهجري (13م)⁽¹⁸⁾.

وقد أثارت هذه الظاهرة ابن المجاور فتحدث عن خراب المدينة التي بناها الأمير هاشم بظاهر مكة وذلك في عهد دولة الأمير عيسى بن فليته⁽¹⁹⁾ واستمرار خرابها إلى دولة الأمير قتادة بن إدريس⁽²⁰⁾.

وهناك نوع آخر من التخريب كان ناتجاً عن طغيان ظاهرة البداوة في مدينة جدة، في الوقت الذي فقدت

بئر علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإلى قباء أربعة فراسخ، وهي مدينة قبل المدينة، وفي مسجدها قبلتان أحدهما إلى جهة المشرق والثانية إلى جهة الكعبة لما أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يوجه وجهه نحو الكعبة لما قال: (قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) ⁽⁷⁾ ثم إلى المدينة فرسخ بين نخل باسقات شامخات⁽⁸⁾.

— ويربط المحور الثاني (من مكة إلى الطائف) بعد مكة إلى منى فرسخ، وإلى المشعر الحرام فرسخ، وإلى جبل عرفات فرسخ، مبتدئ وادي نعمان، وفيه أراك ونخل، وإلى برقة فالمرزة والحجر فرسخان ويكون جوازك على جبل عال يسمى عفر، قال ابن المجاور: ولا شك أنه يسمى غزوان، وبه قال الشاعر:

إذا خِفْتُ يوماً من أمير عُقوبةً فلي باللوى
من رأس غَزَوَانَ مَنْزِلُ⁽⁹⁾

ثم يواصل ابن المجاور سيره حتى يصل إلى الطائف، فيقول في وصفها: "الطائف سامية باردة الماء صحيحة الهوى كثيرة الفواكه، زراعتهم الحنطة اللقيمة التي تشابه اللؤلؤ، وأهلها من ثقيف وقريش على زي أهل مكة في الأكل والملبس"⁽¹⁰⁾.

فبعد وصف ابن المجاور لأحوال الطائف، أورد الطريق من الطائف إلى مكة بداية بموقع حذب الرنج، وهو كهف جبل، ثم إلى الطود الأعظم وهو الذي يسمى الحجاز على حد قوله⁽¹¹⁾.

- المحور الثالث فهو طريق (مكة - جدة) وبعد ما ذكر الأماكن والعيون الواقعة عليه، بين أن الشريف الحسين بن ثابت السديدي غرسا في جميع البلاد نخلاً مقدار عشرين ألف نخلة، ولكن تمت مصادرتها من قبل الأمير طنبا الملك الكامل⁽¹²⁾ عندما حكم الحجاز في سنة 622 هـ/1225م⁽¹³⁾.

والى جانب هذا التقسيم الذي جاء فيه ابن المجاور وفقاً لمنهج أدب "الممالك والممالك" فإنه كان واعياً في الوقت نفسه بخصائص المجال الحجازي وبوحداته الجغرافية عارفاً بتقسيماته الإدارية ولكن من الطريف ملاحظة أن بعض مخطوطات الكتاب تحمل صورة بدائية لتخطيط مدينتي مكة وجدة⁽¹⁴⁾.

— قيد ابن المجاور إشارات تفيد التغير الذي طرأ في سياسة قتادة تجاه حكم من يخالفه — فمن هذه الإشارات أخذ المكوس من الحجاج المغاربة في مدينة جدة⁽²⁴⁾، وهلاك الحرث في منطقة تمتد من يثرب إلى الخضراء⁽²⁵⁾، وهدم حصن "الهجوم" خوفاً من أن يعصيه فيه أحد من الأعراب وبقي الحصن خراب على حد قوله⁽²⁶⁾.

قد أغفل ابن المجاور ذكر أية معلومات حول ولاية الأمير حسن بن قتادة⁽²⁷⁾ لإمارة مكة المكرمة عقب وفاة أبيه، وسيطرة صاحب اليمن الملك المسعود⁽²⁸⁾ على الأمور في مكة المكرمة وانتزاعها من حسن بن قتادة في سنة 620هـ/ 1223م.

إلا أنه أورد لنا خبر صراع الأشراف بعضهم بعضاً، فساعد في إكمال صورة الحالة السياسية في تلك الفترة بقوله: "وفي هذه الأيام قتل الأمير قاسم بن المهنا بن جمار ابن عمه شيحة، وتولى بعد قتله الأمير هاشم بن قاسم على ملك مكة"⁽²⁹⁾.

مهما يكن فإن مسلسل الصراعات الدموية بين الأشراف أخذ في الاستمرار حتى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ 13م، فالرحالة أبو القاسم التجيبي السبتي (696هـ/ 1296م)⁽³⁰⁾ أفاض في كيفية الاغتيالات السياسية والصراعات الداخلية من أجل الوصول إلى الحكم بمكة المكرمة⁽³¹⁾، وهذا إن دل فإنما يدل على أنه لم يكتف بنقل ما سمع من أحداث، بل ذكر ما شاهده وسمعه هو أيضاً، وهنا يتبين لنا أهميته كمصدر معاصر لبعض الأحداث السياسية بمكة المكرمة.

3- السكان والمجتمع:

إن أهم صورة تطالعنا عند تأمل المشهد الاجتماعي الذي يعرض له ابن المجاور هي تلك الصورة المتعلقة بطبيعة الخريطة الاجتماعية ونظامها الترابي، إذ تنوعت المظاهر الاجتماعية متخذة مظاهر عدة، لذلك سنحاول قدر الإمكان تتبعها.

أ- عناصر المجتمع:

ضمت مكة المكرمة العديد من العناصر المجتمعية، والواقع أننا لا نستطيع حصرها وإنما سنعمل على إبراز أهم العناصر الموجودة في مكة المكرمة والتي استخرجناها من رحلة ابن المجاور.

فيه الدولة الأيوبية سيطرتها على الحجاز في تلك الفترة، فقد أورد لنا ابن المجاور ما آل إليه الأعراب من نفوذ وسطوة على مدينة جدة — يقول في نصه "فلما خلت الأرض من الأحباب ملكها الأعراب في دولة الأمير داود بن هاشم، ومن عهدهم خربت واندرست وبقيت الآثار خاوية على عروشها. كما قال الشاعر:

لا بَلَّغَ اللهُ نَفْسِي فِيكَ مُنِيَّتَهُ —
وإن كان يَعْذُكَ بُعْدُ الدَّارِ غَيْرِنِي
جَعَلْتُ دَمْعِي عَلَى ذِكْرِكَ مُحْتَسِباً — والدمعُ
عِنَاوُنٌ مَا يَخْفَى مِنَ الْحِزْنِ
وَأَقْسَمْتُ مُقَلَّتِي مَا لَا تَظُنُّ بِ—
فَالذِّكْرُ يَجْرِي وَيُجْرِي الدَّمْعُ فِي سَنَنِي
وَقَائِلٌ لِي قَد بَانُوا فَقَلْتُ لَهُ
قَدْ فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ الْجَفْنِ —
وَالْوَسْنِ⁽²¹⁾

يبدو أن ظاهرة الخراب وتراجع العمران في الحجاز في مطلع القرن السابع الهجري (13م) من الظواهر التي تستحق الوقوف عندها، وذلك بسبب الصراعات السياسية وتمادي الفتن الداخلية، وبالرغم من أن اندثار العمران هي حقيقة تاريخية موجودة في المدن، إلا أن الاندثار سرعان ما يتحول إلى بناء وعمران وبالتالي استرجاع عافيتها.

2- الخريطة السياسية:

دخل ابن المجاور إلى مكة في مرحلة حرجية تميزت بالصراعات السياسية، وبالذات حينما أصبحت القوى المحلية تنتعش من جديد بعد تراجع تأثير القوى الخارجية (مصر، اليمن) حيث استعادت أسرة قتادة بن إدريس (617هـ - 1220م) زمام الحكم في بلاد الحجاز في مطلع القرن السابع الهجري (13م)، فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه أن ولاية قتادة اتسعت في بعض السنين من حدود اليمن إلى المدينة المنورة، وكثر عدد عسكره حتى خافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً⁽²²⁾.

وكان قتادة في أول أمره حسن السيرة، واستطاع أن ينشر الأمن ويقيم العدل ويكرم وفادة الحجاج، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن أساء سيرته، وجدد المكوس⁽²³⁾ حتى أنه نهب الحجاج في بعض السنين

ومن العناصر التي وجدت أيضاً "الأعراب" وهم فئة احترف بعضهم السرقة والاعتداء على الحجاج وسلب أموالهم، مما تسبب في بروز خطرهم على المجتمع المكي، ونلاحظ أماكن تواجدهم في الطرق المؤدية إلى مكة والمدينة، وفي رحلة ابن المجاور نجد إشارة تفيد انتشار أعراب بني شعبة في المشاعر المقدسة وهدفها الاعتداء على الحجاج بالسلب والنهب والقتل.

يقول: "ولم يكن في جميع العالم أصل من هؤلاء القوم ولا أسرف ولا أجرم ولا أخسر منهم في أخذ مال الحاج، لأنهم يسمون الحاج جفنة الله، فإذا قيل لهم في ذلك يقولون: إذا حضر جفنة الله لخلقته أكل منه الصادر والوارد وإذا قلت لأحدهم: قطع الله رزقك من الحرام. يقول: لا بل قطع الله رزقك من الحلال أما ترى عندنا من الخير سوى هذه الجبال السود لا لنا زرع ولا ضرع ولا أخذ ولا عطاء، وجميع ما تعملوه أنتم مع حاج آخر جاء مقابل الكعبة من الفضائح والغنائم فسلطنا الله عليكم حتى نستقضي للحاج منكم الحق وثالث الباطل"⁽⁴⁴⁾.

هذا ويتفق الرحالان ابن رشيد السبتي (628هـ/ 1258م) والبلوي القنتوري (736هـ/ 1335م) مع ما ذكره ابن المجاور في خبر انتشار الأعراب في المشاعر المقدسة، فقد وصل خطرهم إلى حد أن ابن رشيد ترك المبيت بمنى وقت أدائه لفريضة الحج خوفاً على حياته منهم⁽⁴⁵⁾، كما أشار البلوي⁽⁴⁶⁾ إلى انعدام الأمن أيضاً من الأعراب عند وصوله إلى ماء هدية⁽⁴⁷⁾.

والملاحظ أن الأعراب آنفوا الخضوع لسلطة ولاية الأشراف في بلاد الحجاز، وذلك لسبب ضعف رقابة الأشراف على المناطق التي يصعب السيطرة عليها، وهذا نجده في المشاعر المقدسة، يذكر أن الناس لم يستطيعوا المبيت في منى، وذلك اضطراراً بسبب خوفهم من بني شعبة المغيرين على الحجاج في طريقهم إلى عرفات، كذلك لم يستطع أهل مكة في بعض الأحيان أن يجلبوا الماء إلى عرفات لكثرة الإغارة عليهم⁽⁴⁸⁾.

فمن عناصر المجتمع: آل بيت الرسول ﷺ من ذرية الحسن بن علي وهم السليمانيون وبنو هاشم وبنو قتادة⁽³²⁾. كان شرفاء مكة أيام ابن المجاور بنو قتادة الحسينيون الذين حكموا مكة منذ سنة 601هـ/ 1204م، وكونوا في مكة طبقة من طبقاتها. وقد توارث الحسينيون إمارة مكة، وصارت لهم عصبية تحميمهم⁽³³⁾. وفي رحلة ابن المجاور نجد إشارة إلى حاكم مكة من آل الحسن بن علي، الأمير حسن بن قتادة بن إدريس⁽³⁴⁾، حيث كان مقيماً في مكة واعتمد على القواد في تسيير أمور البلاد، إلا أننا لم نعثر على أسماء أحد منهم.

وقد أورد ابن المجاور خبر نفوذ الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي في مكة المكرمة حينئذ بشكل مقتضب⁽³⁵⁾، لكنه سكت عن ولاية نائبه نور الدين علي بن عمر بن رسول مكة المكرمة 626هـ/ 1228م، وعلى أثر وفاة الملك المسعود 626هـ/ 1228م اضطرب أمر الحكم في مكة المكرمة خاصة بعد أن أقام نور الدين علي بن رسول⁽³⁶⁾ دولة له في بلاد اليمن⁽³⁷⁾.

وفي رحلة ابن المجاور نجد إشارة إلى سكان مكة الأصليين الأشراف من نسل الحسن بن علي ابن أبي طالب، والعبيد الذين يجلبون من أماكن متفرقة مثل الحبشة والنوبة والديلم⁽³⁸⁾، وأوضح أن الأشراف اشتهروا بنكاح الجواري الحبشيات، لذا عرفوا من الناحية الخلقية بالسمرة والبسطة في الجسم يقول: "وهم رجال سمر لأن جلّة مناكحهم الجواري السود من الحبش والنوبة، طوال الجثث صحيحو اللغة قليلو المال كثيرو العشائر والقبائل ذوو قناعة"⁽³⁹⁾.

ومما يؤكد على صحة هذا الوصف ما أورده الرحالة أبي القاسم التجيبي في نهاية القرن السابع الهجري (13م) أن الشريف أبي نمى له ابن يسمى زيد المعروف بابن السواكنية، وأمه بنت ملك البجة، صاحب ميناء سواكن⁽⁴⁰⁾، فبينما ابنه رميثة هو الآخر كان أسود اللون⁽⁴¹⁾، وكذلك كانت والدته الشريف أبي سعد الحسن حبشية⁽⁴²⁾، لربما يكون الداعي إلى التزوج بهذا الجنس هو لتدعيم سلطة الشريف المتولي للإمارة⁽⁴³⁾.

أما طريقتهم في مسائل التجارة والبيوع فأمرهم في ذلك عجيب لأنهم لا يتقاضون من بضائعهم نقوداً بل كانوا يقايضونها بالخرق والعباءات والشمل التي يعدها أهل مكة استعداداً لقومهم⁽⁵⁴⁾.

يبدو هذه التجارات والمبايعات عملت على توطيد العلاقة بين قبائل السرو وأهل مكة، فبلادهم خصيبة متسعة ووفرة الغلات الزراعية، فيجمعون بين النية في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة، يقال: "ولو لا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش"⁽⁵⁵⁾.

كما لم يفت ابن المجاور في إلقاء الضوء على أوضاع اليهود وتوزيعات عناصرهم وأعدادهم على نحو لا نجد له نظيراً لدى الرحالة المشاركة، كما لم يفته الحديث عن أوضاعهم المعيشية في القرى الجنوبية مثل "تبالة"⁽⁵⁶⁾ وما جاورها من الحصون، وذلك لما تحتويه من أهمية في المواقع التجارية التي تمثل حلقة وصل بين مكة واليمن، فالقوافل الحجاجية والتجارية ينزلون بها للضيافة والتزود من الماء والتمر. ومن المرجح أن اليهود شكلوا عناصر نشطة ومؤثرة عملت على ازدهار التجارة وقتئذ، والملاحظ أن عددهم كان يتزايد خاصة في هذه المواقع، ويكفي ما ذكره ابن المجاور عن توزيعات اليهود العدنية يقول: "حدثني يهودي صانع بعدن قال: إن نهر السبت في أرض يقال لها: صيون والأصح أنه في الحجاز ظهر، وهو نهر رمل سيال يجري من ليلة الجمعة إلى غداة يوم السبت - ووراء هذا النهر من اليهود مائة ألف رجل وامرأة وهم زائدون على العد خارجون عن الحد، والقوم عرب يعقدون القاف الألف في لغتهم، وفي جملة القوم أولاد موسى بن عمران عليه السلام"⁽⁵⁷⁾.

كما يشير إلى خطرهم تجاه الحجاج في بعض الأحيان بقوله: "إذا تاه بعض الحجاج بطريق مكة ووصل إلى القوم فبعضهم يقتله، وآخرون يقبلونه ويردونه على أحسن حال"⁽⁵⁸⁾.

تتفق رؤية ابن المجاور مع ما ذكره الرحالة بنيامين التطيلي الأندلسي في القرن السادس الهجري/12م في وجود بقايا من اليهود في أرض اليمن، فقد ذكر في مجمل حديثه "واليهود هنا مرهوبو الجانب من

أما عن حياة الأعراب الخاصة، فقد شاهد قبائل السرو لا يحكم عليهم سلطان، بل مشايخ منهم وفيهم وهم بطون متفرقون على حد تعبيره⁽⁴⁹⁾.

لعل السيئة التي يبرزها ابن المجاور في رحلته عن قبائل السرو قد تكون وليدة المجتمع والعزلة، فهي خرج يحدثنا عن فساد نسائهم يقول في نصه: "فإذا خرج أحدهم إلى سفر أتت المرأة إلى عند المخلف أي عشيق تلك المرأة، يحاضنها إلى أن يرجع زوجها، فإذا قرب المسافر من منزله نادى بأعلى صوته: أيها المخلف اللجوج، قد حان وقت الخروج، ويدخل المسكن غفلة فإن وجده في المسكن قتله، وإن كان قد خرج فقد عفا الله عما سلف، وسألت رجلاً منهم في مكة فقلت له: أيها الرجل النزيل ماذا يصنع المخلف؟ فرد أسوأ الجواب فقال: يسحق الخبز ويمحق المرأة"⁽⁵⁰⁾.

في الواقع أن مفهوم الفساد وانحلال الأخلاق يصعب أحياناً تحديده من خلال حديث مقتضب فحكاية ابن المجاور هذه تطرح أن المجتمع الذي يصفه الراوي هو مجتمع بدائي، وأن هناك عادات لم يستطع العلماء إزاحتها من تلك المجتمعات، حيث أن مفهوم الأخلاق يصبح نسبياً فيسمح للمرأة تذهب للفساد وكأن الفساد ولد معها ولازمها، وأنه متمم لذاتها كأنثى.

من جانب آخر، كان لبعض الأشهر الهجرية عند السرو أهمية خاصة كشهر رجب يعتبر موسماً وعيداً من أكبر أعياد مكة، وتوارثوا ذلك عن أسلافهم وهو أحد الأشهر الحرم، يبين ابن المجاور أهمية الشهر حيث تتم فيه العمرة الرجبية التي كانت تعادل عند السرو وقفة عرفة، يقول: "و غاية حج القوم عمرة أول رجب، وقد ضمن لهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تلك العمرة بحجة كاملة"⁽⁵¹⁾.⁽⁵²⁾

تتطابق رواية ابن المجاور مع ما نقله ابن جبير في القرن السادس الهجري (12م) عند حديثه عن العمرة الرجبية كعادة دينية متوارثة عند قبائل السرو، بقوله: "والعمرة في هذا الشهر كله متصلة ليلاً ونهاراً، رجالاً ونساءً، لكن المجتمع كله إنما كان في الليلة الأولى، وهي ليلة الموسم عندهم"⁽⁵³⁾.

تلك المفاهيم الضمنية التي تربط المرأة بالرجل في هذا المجتمع ضمن ثوابت من عادات وتقاليد قد تنم أكثر بكثير مما عناه الرحالة. فالتقاليد كالقانون تفرض نفسها وتسبب شرائعها.

4- الاقتصاد:

تتضمن الرحلة جغرافية اقتصادية، فقد كان لابن المجاور حاسة ميدانية في رصد الأنشطة الاقتصادية المختلفة.

أ- الثروة الزراعية:

ويمكن تلخيصها في الأقوات والمعيشة التي تتوفر عليها أسواق مكة. وقد قال عنها ابن المجاور: "ويطلع بها من جميع الخضر مثل البطيخ والخيار والقثاء والباذنجان والكراث ويأكلونه بالتمر والفجل وما أشبه ذلك وبها الرطب الطيب من البرنى والمكثوم. ويقال: إنه كان في قديم الأيام يجتمع بها من جميع الأزهار والفواكه والثمار والرياحين"⁽⁶⁵⁾.

كما يشير إلى أثمان السلع، وفي هذا الصدد يعطينا لائحة قديمة حول بعض هذه السلع وأثمانها في زمن العباسيين في مكة⁽⁶⁶⁾.

وفي موضع آخر يتكلم عن الرخاء المتدفق على مكة المكرمة خاصة في موسم "العمرة الرجبية"، فهي في رحلته يصف لنا الأماكن التي تجلب منها كل أنواع هذه الأرزاق يقول: "و غاية حج القوم (السرو) عمرة أول رجب. فإذا دخلوا مكة ملأوها خبزاً من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب وما شابه ذلك، ولذلك يقول أهل مكة: حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب، والسرو أمانا نكسب منهم القوت"⁽⁶⁷⁾.

يعتبر نص ابن المجاور من أغنى النصوص في نقل صورة الحاصلات الزراعية في مطلع القرن السابع الهجري/ 13م، لأنه نقل معلومات من أنواع الأقوات والمعيشة التي تتوفر عليها أسواق مكة، وأماكن ورودها بطريقة تنم عن وعي اقتصادي، فهو يرى توسع في النشاط الميداني الفلاحي في جبال السراة والطائف مواضع قبائل السرو. والعلاقة التجارية مع مكة باعتبارها سوقاً رائجاً في المواسم الدينية (العمرة الرجبية والحج نموذجاً).

جيرانهم، لديهم الأراضي الواسعة.. وهؤلاء يعيشون حياة كلها نقشف وزهد، لا يذوقون لحماً ولا يشربون خمرأ لباسهم السواد ومأواهم الأكواخ والكهوف يقضون جل أوقاتهم صياماً باستثناء أيام السبت والأعياد"⁽⁵⁹⁾.

ومن الأمور ذات الدلالة أن ابن المجاور لم يشير البتة إلى أية اضطهادات لحقت باليهود، وذلك لما يتمتع به ولاية المسلمين (الأيوبيين) من دراية في معاملتهم لأهل الذمة.

ب - العادات والتقاليد: (زواج أهل مكة انموذجاً):

ومما هو جدير بالذكر أنه لم توجد إشارة واضحة تتحدث عن العادات الاجتماعية، سيما إشارة ابن المجاور وهي "زواج أهل مكة"، فقد ذكر من عادات زواج المكيات تخصيص اليوم العاشر من ذي الحجة لخطبة النساء خاصة اللاتي تجهزن لذلك اليوم ويستعدن استعداداً عظيماً، وجرت العادة أيضاً أنه في العاشر من المحرم يدخل كل واحد منهم على عروسه بالنظرة والتظهير على حد قوله⁽⁶⁰⁾. وتساءل ابن المجاور لم ذاك، قالوا: لأن كلاً منا يعيش مع الحاج في كل فن من الفنون من حرام وحلال، فإذا رحل الحاج دار الخطب والنكاح والأفراح والأعراس بين الناس"⁽⁶¹⁾.

ومن العادات التي كانت تحدث في زواج المكيات أنه إذا تزوج رجل من أهل مكة وقطع المهر وأراد الدخول على المرأة يخضب الرجال أيديهم وأرجلهم تزيئاً. ويحضر كل أصدقائه من الأهل والأقارب وبيده قرطاس منشور مكتوب عليه اسم الآتي مع وزن المبلغ وعدده، يقدمه قدام العروس كل على قدر حاله وسعة ماله⁽⁶²⁾. وبعدها يخرج العريس إلى الحرم ويطوف سبعة ويصلي في مقام إبراهيم عليه السلام ركعتين ويقبل الحجر الأسود، ويخرج بالشمع إلى بيت العروس فتجلى عليه ويدخل عليها ويبقى عندها سبعة أيام⁽⁶³⁾، ففي اليوم السابع يخرج يضم الطرح (المال) الذي طرح له، ويكون ذلك الطرح ديناً عليه⁽⁶⁴⁾.

باستطاعة القارئ في أخبار ابن المجاور عن الأعراس المكية أن يكون فكرة واضحة من خلال

مصحوباً بجريدة تطلعك على أسعار ما يجري في السوق، وهكذا لم يكن الرحالة رجل فقه وأحكام، ولكنه رجل مطلع على كل شيء.

فقد بدا مهتماً بقضايا الصرف والمقارنة بين العملة في مكة وغيرها، وكذلك المقارنة بين الرطل بمكة والذراع في مصر والأوقية والدرهم اليمني وما تعرف عليه هناك مما سماه "صنجة مكة"⁽⁷¹⁾، ولم يفته وهو يتحدث عن ضرب الدراهم الكبار بمكة على قوانين اليمن وأن أسعار البضائع في مكة ترتفع بعد أيام الموسم بمدة شهر كامل⁽⁷²⁾، وقد رأيناه أحياناً يربط بين نقص قيمة العملة المكية بقيمة العملة البغدادية، خاصة في عهد السلطان طغتكين الكامل الذي أمر في سنة 622هـ/ 1225م بضرب دراهم مستديرة سماها الدراهم الكاملة⁽⁷³⁾.

مما تجدر الملاحظة به استمرارية الاضطراب النقدي في طيلة حكم الدولة الأيوبية على مكة⁽⁷⁴⁾ لذا لم يكن هناك بد من ضرب نقود جديدة، غير أن هذا لم يحدث إلا في عصر الكامل بن العادل، ومن هنا اعتبرت الرحلة في مطلع القرن السابع الهجري/ 13م دليلاً تجارياً للذين تهتمهم الدراسات الاقتصادية على ذلك العهد على ما أشرنا إليه.

يقول ابن المجاور: "ونقد البلد ذهب مصري وبها يضرب على عيار المصري يسوى الدينار أربعة وعشرين علوياً، ويحسب كل علوي أربعة دراهم كل درهم ستة فلس، فلما رجعت الدولة لآل أيوب ضربوا الدراهم الكبار، ويقال: أول من ضرب هذا الدرهم الكبير بها المعز إسماعيل بن طغتكين في اليمن، وأول من ضرب الدراهم الكبار بمكة الملك المسعود يوسف بن محمد على قوانين اليمن.

"فلما تولى ملك الحجاز طغتكين الكامل نقص المائة الدينار فصار الآن تصح المائة المكية ببغداد أربعة وتسعين ديناراً"⁽⁷⁵⁾.

2- المكوس⁽⁷⁶⁾:

هي ضرائب إضافية نشأت عن حاجات وظروف جديدة اضطرت الدولة إلى فرضها، وفكرة فرض المكوس قديمة، وهي ليس بها سند شرعي، إنما توارثوا فرضها من عصور سابقة. وكان "المكس" يؤخذ من الحجاج والتجار بعيداب، وإن لم تجب منهم

هذا ويتفق ابن المجاور مع ما ذكره ابن جبير في القرن السادس الهجري/ 12م في مشاهدة قدوم قبائل السرو إلى مكة في المواسم الدينية، ومعهم ضروب من الأطعمة "فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة. فيرغدون معاش أهل البلد والمجاورين وترخص الأسعار وتعم المرافق"⁽⁶⁸⁾.

ب - الصناعة:

أما عن الصناعات التي استرعت اهتمام ابن المجاور عند مروره بالحجاز فهي استنباط المياه الجوفية والطبيعية، هناك مصانع للمياه المعدنية تسمى الصهاريج (البئر الكثيرة الماء، البعيدة القعر)، والتي تقوم بحفظ ما يسيل إليها من مياه الأمطار العذبة النازلة على القرى في المواسم، يحدثنا ابن المجاور عن أخبار بعض الصهاريج القديمة عند زيارته لمدينة جدة بقوله: "فكان إذا وقع الغيث وامتألت منه الصهاريج التي بظاهر البلد كانت العبيد تنقل ماء الصهاريج على الدواب فتقلبه في الصهاريج التي عندهم في الدور، وكذلك صهريج الأحميمي وصهريج مسجد الأبنوس، وصهريج الجامع، وكان يبقى الماء عندهم من العام إلى العام وهم في أكل وشرب وغسل وهزل وهرج ومرج"⁽⁶⁹⁾.

كذلك يذكر ابن المجاور نشاطاً صناعياً في مكة المكرمة يقوم به الصناع وهو صناعة الدباغة واشتهر صناع مكة بالعمل في الدباغة، إذ عرفوا باقتنائهم لهذه الحرفة، لأن كان مركزها الصناعي في إقليم اليمن والحجاز ونواحيها، وهذا ما يفسر لنا كثرة الدباغين في هذه الفترة ويسجل ابن المجاور ملاحظته لاحتراف المكيين للدباغة وذلك بقوله: "ويدبغ في مكة جلود الجمال والبقر والغزلان، وكان مسافرو خراسان يشترون جلود البغال الفحولة من رستاق الموصل وسواد أربيل وتدبغ في مكة"⁽⁷⁰⁾.

ج - التجارة:

1- المقاييس والمكاييل والنقود:

في هذا الصدد لا بد أن تلفت النظر إلى نوع من المقارنات الطريفة والدالة على الحس الاقتصادي الذي كان يتوفر عليه، والذي يعبر عن شمولية شخصيته: قضية تتبعه للأسعار وتتبعه للمكاييل والمعايير والموازين وقيمة العملات حتى لكأنك

ويوسفى للقواد وصار المبلغ ثمانية يوسفية على كل رأس.

ومن لم يزن كانوا يأخذونه ويدلونه في صهريج من صهاريج جدة، والأصح في صهريج مسجد الأنوس، ويقال: إنهم كانوا يصيرونهم إلى جزيرة صندلة، وقيل: إلى جزيرة أبي سعيد ويعلقون أحدهم بحقه وقد عرش بها أخشاب لهذا الفن.

فإذا حج الناس وقضوا مناسكهم وأفاض كل راجعاً إلى مقصده فحينئذ يخرجون المغاربة من الصهاريج والجور وقسطوهم على المراكب الراجعة إلى مصر والراجعة إلى عيذاب والقلزم.

سئل قائد من القواد: لم تأخذون منهم هذا اليوسفي وهم أشد الناس بخلًا وأنزق الناس في الخلق؟ قال: لقول الشاعر:

وخذ القليل من البخيل وذمه إن القليل من
البخيل كثير

قال الحسن بن محمد بن الحوت: ليس هو كذلك وإنما كان يزن أحدهم سبعة يوسفية ونصف كل يوسفي ستة وعشرين قيراطاً وحبّتين بوزن مكة، وفي دية الكلب نصف يوسفي فصار المبلغ ثمانية يعقوبية، أسس ذلك في دولة الأمير عيسى ابن فليته وبقي يحيى على حاله إلى أواخر دولة الأمير مكثّر⁽⁸¹⁾، فلما كثرت الأقاويل ووصل هذا الخبر إلى مسامع العالم أنفذ صلاح الدين أبوالمظفر يوسف بن أيوب إلى الأمير مكثّر بأربعة آلاف أردب حنطة، والأصح ستة آلاف أردب إلى جدة وإلى مكة وقال له: خذ هذا القدر واترك عن المغاربة الجزية مع دية الكلب، فأزال الأمير مكثّر ذلك كله في سنة ست وثمانين وخمسائة، وبقي الأمر على حاله في أيام الأمير قتادة بن إدريس بن مطاعم بن عبدالكريم وأراد أن يرد الشيء إلى أصله، يعني أخذ الجزية من المغاربة فأدركه الموت وارتفع عنهم⁽⁸²⁾.

من الملاحظ أن هذه الشكاوى تتكرر ولم تختف من مسرح المرافى في مصر والحجاز، علماً بأن كل هذه الشكاوى تتعالى في أواخر الدولة الأيوبية، وفي بدايات الدولة المملوكية في القرنين السابع والثامن الهجريين (13-14م)⁽⁸³⁾، وهنا نتساءل عن الأسباب

في عيذاب جبيت منهم في جدة، ومقداره سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان، أما من لم يؤد المكس هذا يمنع من الحج والتجارة، ويعذب بأنواع شتى من العذاب⁽⁷⁷⁾.

ومن المعروف أن صلاح الدين الأيوبي ألغى معظم المكوس الفاطمية التي كانت تجبى في مصر مرة واحدة سنة 567هـ/1171م. ولم يبق من المكوس بعدئذ سوى مكس الحاج، الذي ألغاه كذلك صلاح الدين سنة 576هـ/1176م⁽⁷⁸⁾.

على أن إسقاط المكس لم يستمر طويلاً، إذ أهمل خلفاء صلاح الدين إرسال ما التزم به صلاح الدين إلى البيت الحرام، فعاد الشريف يجبي المكوس من الحجاج والتجار⁽⁷⁹⁾. غير أنه في سنة 639هـ/1241م ألغيت ثانية المكوس التي فرضها خلفاء صلاح الدين من قبل صاحب اليمن المنصور عمر بن رسول⁽⁸⁰⁾.

ويتضح من تطور مسألة المكوس أنها كانت إجراء استثنائياً بسبب ضعف موارد إمارة مكة، لذا لم يفرق في هذه الفترة بين التاجر والحاج، وبمضي الوقت أدرك السلاطين المبالغ الطائلة التي يجنيها الأشراف من التجار والحجاج.

أشار الرحالة ابن المجاور إلى المكوس بشكل يوضح قسوة القائمين على جبايتها والقيمة التي تؤخذ منها سواء في الورود أو الصدور، فقد وصف ما لقيه مع الحجاج المغاربة بجدة من نكال وما تحملوه من أذى، إذ انتهكت الحرمات وانتزعت الأموال من أصحابها. يقول في نصه: "حدثني إسماعيل بن عبد السيد بن البيع البغدادي قال: إن الأمير علي بن فليته ابن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم كان يأخذ من المغاربة جزية في جدة إذا قدموا للحج، كان يأخذ من كل رأس سبعة يوسفية وزن كل يوسفي ثلاثة عشر قيراطاً وحنة بوزن مكة، وكان القواد يوزنون المغاربة أيضاً على كل رأس يوسفي في دية الكلب.

والموجب لذلك أنه جاء في جدة كلب فأخذ رغيف خبز فالتامت المغاربة فقتلوه فقامت القواد ليقتلوا المغاربة. فلما رأت المغاربة عين الهلاك أقروا على أنفسهم أن يزن كل واحد منهم يوسفي في دية الكلب، فتقرر ذلك عليهم فكانوا يزنون للأمير سبعة يوسفية

الأخرى، حيث كانت الدولة تقوم بأوجه النفقات المختلفة مثل القصور السلطانية، وأرزاق الجند، والإنفاق على الحملات العسكرية، ونفقات المشروعات العامة.

الخاتمة

ترجع أهمية كتاب ابن المجاور إلى عدة اعتبارات أهمها أنه نص مباشر غير معاد، وأنه نص جاء في مرحلة كانت الكتابات الرحلية فيها قليلة عن مكة المكرمة، إضافة إلى غناه بالمعلومات التي رسمت صورة مكة المكرمة في مرحلة حرجة تميزت من الناحية السياسية بالاضطرابات الداخلية وضعف الكيانات المحلية وغياب الرقابة المركزية، وباشتداد الصراعات الخارجية حول مكة المكرمة.

وعلى الرغم من طغيان المعطيات الطبوغرافية والملاحظات الأثنوغرافية على نص الرحلة، فهناك بعض الإشارات التي ركز عليها والتي يمكن أن تفيد الباحث كعنايته الخاصة بذكر عادات أهل مكة سيما الزواج والأسماء، وتحصيل المكوس والمقارنة بين أسعار بعض المواد بين مكة واليمن ومصر، وتركيزه على أحوال المعيشة بصورة خاصة، ومقارنته بين صرف العملات المكية والمصرية، ووصفه قبائل السرو الذين يعتمرون في أول رجب، وأديان مدينة نجران ويهود تبالة، كما ضمّن لنا رسماً توضيحياً مجسماً لمدينة مكة وسورها الذي بناه الأمير قتادة سنة 608هـ/1212م.

ونعتقد أن الكتاب ككل يحتاج كما هو الشأن بالنسبة لكل كتب الرحلات الواسعة إلى تحقيق علمي تجزيئي، حتى يتمكن الباحثون من تدقيق كثير من معطياته، وتصحيح ما شاب طبعاته من أخطاء.

التي أدت بدورها إلى استمرارية هذه الظاهرة في تلك الفترة الممتدة؟

كان من الطبيعي أن تكون الاضطرابات التي صحت سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية مقرونة باختلال النقد واضطرابه، إلا أن النقد ظل مضطرباً طوال السنوات العشر الأولى من تاريخ دولة المماليك⁽⁸⁴⁾. وقد كان لكثرة النقد المتداول ورواج الفلوس النحاسية خاصة أثر في ارتفاع الأسعار وغلاء المبيعات، فأصبح النقد يوزن ولا يعد. وهذه أول مرة يخسر النقد فيها صفة العد ليصبح محلاً للوزن. ولربما أدى هذا إلى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود وعمدوا إلى نظام المقايضة، ومن ذلك ما يرويّه ابن المجاور قائلاً: "وجميع ما يباع بمكة مقايضة كج بكج.." ⁽⁸⁵⁾.

- قد تعرضت العملة في عصر المماليك للتلاعب في العيار والتغيير في الوزن والتبديل في الحجم، الأمر الذي جعلها لا تحوز على ثقة المتعاملين من التجار - وقد أشار القلقشندي إلى أن العبرة في وزن الدنانير بالمثاقيل، قائلاً عن الدنانير التي سُكّت في مصر في تلك الفترة: "إن الغالب فيها نقص أوزانها، وكأنهم جعلوا نقصها في نظير كلفة ضربها"⁽⁸⁶⁾. هذا وفي الوقت الذي اعتري الدنانير المملوكية ذلك الخلل، نجد أن المرينيين⁽⁸⁷⁾ احتفظوا بوزن الدينار الذي كان عليه أيام الموحدين وهو 4.729⁽⁸⁸⁾ من الجرام، ولعل السبب في احتفاظ المرينيين بوزن الدينار على ما كان عليه أيام الموحدين حرص بني مرين على ألا تهتز قوة الدينار الشرائية.

كانت للأزمات الاقتصادية من غلاء ومجاعات دور في زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات ذلك العصر. وكيفما كان الأمر فإن هذه المكوس مثلت ورداً مالياً مهماً لبيت المال بجانب المصادر

شكل رقم 1: صورة مكة المكرمة، كتاب صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تأريخ المستبصر)، تحقيق اوسكر، بيروت، منشورات المدينة، 1986، ص 11.

شكل رقم 2: صورة مدينة جدة، كتاب صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تأريخ المستبصر)، تحقيق أوسكر، بيروت، منشورات المدينة، 1986، ص44.

بيروت، منشورات المدينة، الطبعة الثانية، 1986/1407، ص 2-6.

6- قبائل يمنية يسكنون في جبال السراة كقبيلة بجيلة فاشتق اسمهم من اسم بلادهم. يحدثنا ابن جبير عن صفات البداوة فيهم - انظر: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنائي الأندلسي، الشاطبي البلنسي، ولد في بلنسية سنة 539هـ. وكانت وفاته بالإسكندرية، حيث أقام هنالك محدثاً، في سنة 614هـ. ابن جبير، الرحلة، دار الهلال، بيروت، 1981، ص 95-96؛ ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص 26.

7- سورة البقرة، آية (144).

8- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص 17.

9- المصدر نفسه، ص 18.

10- المصدر نفسه، ص 25.

11- يقول ابن المجاور: "أن الطود الأعظم على هذا الوجه هو الحجاز بعينه لأنه حجز ما بين نجد وتهامة، ويقال أنه جبل متصل إلى اليمن، وديار العرب هي الحجاز التي تشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليقها ونجد والحجاز المتصل بالبحرين وليس في سائر الأقاليم أطيب منه ولا أصح من جوه وهو". المصدر نفسه، ص 39.

12- الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب لقب بـ أبي المعالي، (576/635هـ) خامس سلاطين الدولة الأيوبية حكم من (1218 م / 1238 م). ولده أبوه الديار المصرية سنة (615 هـ) - خمس عشرة وستمئة، وحسنت سياسته فيها، واتجه إلى توسيع نطاق ملكه فاستولى على حران، والرها، وسروج، والرقعة، وأمد ثم امتلك الديار الشامية. من آثاره المدرسة الكاملية بمصر، وقد توفي الملك الكامل في دمشق سنة (635هـ)، واستمر في الملك عشرين سنة. انظر: المرتضى الزبيدي، تحقيق صلاح الدين المنجد، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، ط 2، بيروت - لبنان، دار الكتاب الجديد، 1995، ص 36.

13- المصدر نفسه، ص 41.

14- المصدر نفسه، ص 11، 44.

15- المصدر نفسه، ص 9.

1- هو نجم الدين أبو الفتح يوسف بن صاحب يعقوب بن محمد بن علي الشيباني الدمشقي الكاتب: (601-690هـ) = (1205-1291م)، سمع من الكندي، وعبد الجليل، وتفرد برواية "تاريخ بغداد" عن الكندي. يقول الحافظ الذهبي: "كان ديناً، ومصلياً، إلا أنه يخدم في المكس". انظر: الحافظ الذهبي، العبر في خبر من عبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ج 5، 1986، ص 370؛ ابن العماد، شهاب الدين ابن الفلاح الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، مطبعة ابن كثير، ط 1، م 7، ص 728؛ خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت، ج 8، ص 258؛ ابن تغري البردي، جمال الدين ابن المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة، ج 7، ص 33؛ أغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية (جامعة الدول العربية)، القسم الأول، 349-351.

2- كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص 350.

3- المصدر نفسه، ص 351.

4- تاريخ مخطوطات هذا الكتاب معقد للغاية، فإلى جانب المخطوطات التي وجدت طريقها إلى أوروبا بفضل مجهودات شيفير Schefer، أضيفت مخطوطتان أخريتان في عهد دي خويه ولاندبرج، ورغم أن هذا فلم يقدر لأحد هذين العالمين أن يتخذ قراراً بإخراج طبعة كاملة للكتاب، ولعل لوفجرين Lofgren كان أكثر حظاً منهما فقد استطاع أن يضيف إلى تلك المخطوطات مخطوطة استنبول، وينشر قطعاً من كتاب ابن المجاور. والأثر حقاً جدير بطبعه كاملاً، فقد نشرها أخيراً (1936). كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص 350، 351.

5- ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تأريخ المستبصر)، تحقيق أوسكر لوفجرين

- 22- ابن الأثير، الكامل، ج12، ص401؛ الفاسي، العقد الثمين، ج7، ص39، 61.
- 23- ابن تغري البردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، ج6، ص249-250؛ ابن الأثير، الكامل، ج12، ص401.
- 24- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص48-49.
- 25- المصدر نفسه، ص16.
- 26- المصدر نفسه، ص21.
- 27- حسن بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسني يكنى بأبي عالي - أمير مكة المكرمة بعد أبيه نحو ثلاث سنين قتل أباه وأخاه وعمه، ولكن لم يستمر في حكم مكة، إذ أخرجه منها الملك المسعود سنة 619هـ/ 1222م، وكان سيئ العشرة والسيرة، وهو الذي قتل أمير الحاج العراقي سنة 617هـ/ 1220م. انظر: الفاسي، العقد الثمين، ج4، ص160، 174.
- 28- يوسف بن محمد بن أبي بكر محمد بن أيوب الملك المسعود بن الملك الكامل ابن الملك العادل صاحب اليمن ومكة دخلها وانتزعها من حسن بن قتادة 620هـ/ 1228م - توفي 13 جمادى الأولى سنة 626هـ/ 1228م. انظر: عز الدين بن فهد، غاية المرام، ج1، ص584، 595.
- 29- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص16.
- 30- القاسم بن يوسف بن محمد التجيبي السبتي، رحلة أندلسي الأصل نشأ في المغرب وقد أشار إلى سنة مولده في 670هـ/ 1271م خرج قاصداً الحج ولقاء العلماء وكان خروجه 695هـ/ 1295م وتقع رحلته التي سماها (مستفاد الرحلة والاغتراب) في ثلاث مجلدات، توفي سنة 730هـ/ 1329م. انظر: التجيبي، مستفاد الرحلة، المقدمة ص ح-خ-د-ذ.
- 31- التجيبي، مستفاد الرحلة، ص305، 306، 334، 336.
- 32- القلقشندي، احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق نبيل الخطيب، ط1، دار الفكر، 1987، ج4، ص272، 275، 277.

- 16- قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم، موصول إلى الإمام علي بن أبي طالب، يكنى أبي عزيز المكي صاحب مكة وينبع وغيرها، ولي مكة عشرين سنة، وكان أبو عزيز في بداية أمره حسن السيرة، ولكن تغير حاله وساءت معاملته للحجاج وأكثر المكوس، أدركه أجله سنة (617هـ/ 1220م). انظر: الفاسي، تقي الدين محمد الحسيني، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، تحقيق محمد حامد الفقي، ط2، 1985، ج1، ص39، 61؛ ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي الجزري، الكامل في التاريخ، ط4، بيروت، دار الكتاب العربي، 1983، ج12، ص401.
- 17- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص9-10.
- 18- انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979، ج4، ص105-106؛ الفاسي، العقد الثمين، ج4، ص213؛ عز الدين ابن فهد الهاشمي القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهم شلتوت، ط1، دار المدني، ج1، ص575؛ العصامي، عبد الملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، ب.ت، ج4، ص214، 219؛ التجيبي، القاسم بن يوسف، مستفاد الرحلة والاغتراب، عبد الحفيظ منصور، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، ص305-306-307، ص482.
- 19- عيسى بن فليته بن القاسم بن ابي هاشم محمد بن جعفر الحسني. أمير الحرمين. تولى امرة مكة بعد منازعته مع ابن اخيه قاسم بن هاشم بن فليته سنة 556هـ واستمر الى ان توفي سنة 570هـ، وقد كانت بداية امرته المدينة سنة 564هـ. انظر: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الامير، تحقيق مئية الطالب في معرفة الاشراف الهواشم الامراء، توزيع مؤسسة الريان، بيروت، ط. 1998، 1، ص53.
- 20- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص9.
- 21- المصدر نفسه، ص46.

- 42- عز الدين ابن فهد، غاية المرام، ج2، ص76، 137.
- 43- عواطف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية (مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين)، الرياض، 1996، ص209.
- 44- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص52-53.
- 45- ابن رشيد، أبو عبد الله محمد الفهري، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية الى الحرمرين مكنة وطبيبة، تحقيق محمد الحبيب، ط1، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1988، ج5، ص87.
- 46- البلوي، خالد بن عيسى، تاريخ المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، طبع تحت اشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي بين المملكة المغربية ودولة الامارات العربية، مطبعة فضالة-المغرب، ج1، ص279.
- 47- هدية: محطة للجمال في وادي طبق البلادي، معجم معالم الحجاز، ج9، ص169.
- 48- ابن جببر، الرحلة، ص89، 129.
- 49- ابن المجاور، الرحلة، ص26.
- 50- المصدر نفسه، ص26.
- 51- لم نجد ما يؤيد صحة ذلك، والثابت في ذلك "عمرة رمضان" والله أعلم.
- 52- ابن المجاور، الرحلة، ص26-27.
- 53- ابن جببر، الرحلة، ص98.
- 54- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص27.
- 55- ابن جببر، الرحلة، ص96.
- 56- تباله: سميت بهذا الاسم نسبة إلى تباله بنت مكنف (كتاب معجم البلدان) وهي تقع على وادي تباله أحد فروع وادي بيشه ويقع هذا الوادي عدة قرى ومدن في جبال السروات الحموي، معجم البلدان.
- 57- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص32-33.
- 58- المصدر نفسه، ص33.
- 59- الاندلسي، الرحالة بنيامين بن يونة التطيلي النباري، رحلة ابن يونة الاندلسي الى بلاد الشرق 33-307.
- 33- الفاسي، العقد الثمين، ج1، ص470؛ علي السليمان، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، القاهرة، 1973، ص207.
- 34- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص10.
- 35- المصدر نفسه، ص10.
- 36- الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول 626 هـ ملك الدولة الرسولية في اليمن حكم في الفترة (1229 / 1249 م)، ضربت السكة باسمه وخطب له في جميع أقطار اليمن سنة 630 هـ وكانت إقامته في تعز وجهاز حملة إلى الحجاز، فاستولى على مكة وتوابعها، وتم له ملك ما بينها وبين حضرموت. وانتظم له ولبنيه ملك الحجاز واليمن 232 عاماً. وللمنصور آثار جلييلة بمكة واليمن، منها مدارس ومساجد وكانت نهايته أن اغتاله نفر من مماليكه بقصره .
- انظر: ابن تغري البردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهد شلتوت، مكتبة الخانجي، ب.ت، ج1، ص501-502 .
- 37- الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1983، ج1، ص42؛ ابن أبيك الدواداري، الدر المطلوب في اخبار بني ايوب، تحقيق سعيد عبيد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972، ج7، ص307؛ الفاسي، العقد الثمين، ج1، ص494-495؛ باقاسي، عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، منشورات نادي مكة الثقافي-دار مكة للطباعة والنشر، ص52-53.
- 38- ابن خلدون، العبر، ج4، ص99.
- 39- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص5.
- 40- (سواكن) ميناء سوداني على ساحل بحر الجار قرب عيذاب ترفأ إليه سفن الذين يقدمون من جدة وأهله بجاة سود نصارى. انظر: الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، ب.ت، ج3، ص276؛ أبي القاسم التجيبي، مستفاد الرحلة، ص245.
- 41- أبي القاسم التجيبي، مستفاد الرحلة، ص306-307.

ص205؛ حسنين ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص50؛ عائشة باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص71.

79- عطيه القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، القاهرة، 1976، ص237؛ علي بن الحسين، العلاقات الحجازية، ص161.

80- المقرئزي، السلوك، ج1، ص332-333، بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج2، ص178؛ عائشة باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص72.

81- مكثّر بن عيسى بن فليته بن محمد جعفر الحسني كانت ولايته لمكة المكرمة عدة سنين يتداولها هو وأخوه داوود مدة ثلاثين سنة وبمكثّر انقضت ولاية الهاشم لمكة المكرمة على اختلاف سنة انقضائها، وولايته بدأت 571 هـ/1175م، وهو الذي بنى الحصن على جبل أبي قبيس وهدمه أمير الحاج العراقي طاشتكن، توفي سنة 600 هـ/1203م. انظر: الفاسي، العقد الثمين، ج7، ص274-279.

82- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص48-49.

83- انظر: العبدري، أبي عبد الله محمد الحياحي، الرحلة المغربية، حققه محمد الفاسي، جامعه محمد الخامس، الرباط، ص85-86؛ ابن رشيد، ملء العيبة، ج3، ص20؛ مقدمة للمحقق ابن الخوجة، التجيبي، مستفاد الرحلة، ص171؛ البلوي، تاج المفرق، ج1، ص197.

84- حسن إبراهيم، الحضارة العربية، ص304.

85- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص13.

86- القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص441.

87- المريني، بنو مرين أو بنو عبد الحق هي سلالة حكمت بلاد المغرب الأقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر ميلادي، وتوسعت حدود دولتهم خارج نطاق المغرب في عهد السلطان أبي سعيد الأول، ويوسف بن يعقوب وخاصة أيام أبي الحسن المريني، الذي ضمّ لدولته المغرب الأوسط والأدنى فوحد المغرب الكبير تحت رايته. انظر: محمد المنوني، وركات عن حضارة المرينيين، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، 1996، ص14-19.

الاسلامي، ترجمها وعلق على حواشيها عزرا حداد، ط1، دار ابن زيدون، بيروت، 1996، ص148.

60- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص7.

61- المصدر نفسه، ص7.

62- المصدر نفسه، ص7.

63- المصدر نفسه، ص7.

64- المصدر نفسه، ص7.

65- المصدر نفسه، ص9.

66- المصدر نفسه، ص9.

67- المصدر نفسه، ص27.

68- رحلة ابن جببر، ص96.

69- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص43-44.

70- المصدر نفسه، ص13.

71- المصدر نفسه، ص12.

72- المصدر نفسه، ص12.

73- حسنين، محمد ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، 1964، ص99-100.

74- القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص275؛ عبدالرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة، 1964، ص73.

75- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص12-13.

76- عرف المقرئزي المكس بأنه دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق، وأن أصل المكس في اللغة الجباية، أما كلمة "مقس" فيذكر المقرئزي بأنها اسم قرية على ساحل النيل واقعة شمال القاهرة، كانت تعرف من قبل باسم أم دنين ولكن سميت بهذا الاسم، لأن الماكس كان يعقد بها ليستخرج المكس، فكلمة مكس تحريف لكلمة مقس. انظر: المقرئزي، تقى الدين احمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، ج2، ص120.

77- المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ج1، ق1، ص4؛ رحلة ابن جببر، ص47؛ إبراهيم رفعت، امرأة الحرمين، القاهرة، 1925، ج1، ص69؛ علي بن الحسن، العلاقات الحجازية المصرية في زمن سلاطين المماليك، ص160.

78- أبوشامة، شهاب الدين ابو محمد المقدسي، الروضتين في اخبار الدولتين، بيروت، ب.ت، ج1،

Massignon, I. ,Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle, Alger, 1906, pp 102 – 103.

88- انظر: ابن خلدون، العبر، ج1، ص214؛
عبدالعزیز بن عبد الله، مظاهر الحضارة المغربية،
الدار البيضاء، ط1، ص1957، القسم الأول،
ص75-76.

Mecca Almukaramah at the beginning of the seventh century AH (13 AD) through Ibn Almugawer's journey (Clairvoyant's History)

Nawaf Abdul Aziz Al-Jahmah

*Associate Professor, Faculty of Basic Education،
General Authority for Applied Education, Kuwait*

Abstract. In the two years (625-626 AH) (1227-1228 AD), *Ibn Almugawer* gave a precise description of *Mecca Almukaramah* in his era, pointing to the importance of *Mecca Almukaramah* and its religious rank. The material presented by him is of great importance because it filled a gap in the traveling and geographical information of *Mecca Almukaramah* at the beginning of the seventh century AH (13 AD), especially since *Ibn Almugawer* was not just a chatty and a historian, but also a traveler with accurate observation.

In view of the importance of the book from the scientific and historical point of view, we have decided to re-consult it, especially to its most documented editions (Oscar Lofgren Verification), to explore its material about *Makkah Almukaramah* and to vet some of its details and references that reflect an important phase in the history of *Mecca Almukaramah*, for the paucity of the writing about and the disturbance of the available historical material around it.